محمود محمد طه

يدعو إلى

تطوير

شريعة الأحوال الشخصية

الطبعة الثالثة
١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

فهرست

رقم الصفحة

الاهـــــداء	٢
مقـدمة الطبعة الثانية	٣
مقـدمة الطبعة الاولى	٦
توطئة البحث	١٣
نشـــــاة الضمير	١٦
نشـــــاة الاسلام الخاص	١٨
نشـــــاة المجتمع	١٩
بين الفـرد والمجتمع	٢٣
قـانون الغـــابة	٢٥
قـانون الانســـان	٢٩
المجتمـع العبـودى	٣٤
المـــراة	٣٥
آيات الاصول وآيات الفروع	٤١
الوصـــــاية	٤٤
الاســـلام والســـلام	٤٩
الدســتور الاســـلامى	٥١
المســـاواة بين الرجال والنساء	٥٣
المـراة مكانها البيت	٥٥
الـــزواج	
الزواج فى الحقيقة	٥٩
الزواج فى الشـــريعة	٦٤
الزواج فى شريعة الاصول	٦٧
الزواج فى شريعة الفـــروع	٦٨
تداخل الشريعتين وانفتاحهما على بعضهما	٧٢
الطـــــلاق	٧٥
تعـــــدد الزوجات	٧٦
النفقـــــة	٧٨
خـــاتمـــة	٨٠
وصـــيتى للرجـــال	٨٩
وصـــيتى للنســـاء	٩٣
وعـــــد	٩٤

الاهداء

الى أكبر مـــن اســـتضعف فى الأرض ،

ولا يـــزال ..

الى النســـــاء ..

ثم الى ســـواد الرجـــال ،

والى الأطفـــــال ..

بشراكم اليوم !! فان موعـــود الله قد اظلكم .

« ونريد أن نمن على الذين استضـــعفوا فى الأرض ، ونجعلهم ائمـــة ، ونجعلهم الوارثين » ..

بسم الله الرحمن الرحيم

« من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد »
صدق الله العظيم

مقدمة الطبعة الثانية

هذه مقدمة الطبعة الثانية من كتاب « تطوير شريعة الاحوال الشخصية »، وكانت الطبعة الاولى منه قد صدرت فى شهر ذى القعدة من عام ١٣٩١ — ديسمبر من عام ١٩٧١ ... ولقد لقيت اقبالا كبيرا من القراء الكرام ، مما شجع على اعادة طبعه ..

صدرنا هذه الطبعة بالآية الكريمة : « من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ؛ وما ربك بظلام للعبيد » .. ذلك بانها آية تقرر مبدأ المسئولية .. والمسئولية هى الخط الفاصل بين القاصر والرشيد .. فالقاصر حظه منقوص ، والرشيد حقه كامل — القاصر عليه وصى ، والرشيد وصى نفسه تحت ظل القانون .. وليس فى شريعة الله ظلم ، فما هو الا العدل .. والعدل هو وضع الاشياء فى مواضعها .. العدل هو اعطاء كل ذى حق حقه ..فليس من العدل معاملة القاصر معاملة الرشيد ، فانه لا يستحقها .. وليس من العدل أيضا معاملة الرشيد معاملة القاصر ، فانه يستحق افضل منها .. ولقد جاء فى شرع الله ان المرأة على النصف من الرجل .. قال تبارك وتعالى : « يوصيكم الله فى اولادكم ، للذكر مثل حظ الانثيين » .. وقال جل من قائل : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم .. فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ، ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى » .. وليس هذا ظلما ، وانما هو عدل ، ولكنه العدل الذى يناسب القاصر .. هو العدل الذى يبرره حكم الوقت .. فقد كانت المرأة فى القرن السابع قاصرة عن شأو الرجل ، وليس القصور ضربة لازب عليها ، وانما هو مرحلة تقطع مع الزمن

والصيرورة الى الرشد حتم ، مقضى ، بحتمية ملاقاة الله : « يأيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا ، فملاقيه » وليست ملاقاة الله بقطع المسافات ، وانما هى بتقريب صفات العبد من صفات الرب .. وليس الانسان الوارد ذكره هنا هو الرجل وحده ، وانما هو الرجل أو هو المرأة .. والصيرورة المحتومة من القصور الى الرشد انما تنفذ فى الزمن ، وبنفاذها يقع ما يسمى بحكم الوقت .. فللقرن السابع « حكم وقت » هو الذى جعل العدل بين الرجال والنساء على الصورة التى جاءت بها شريعة الله ، وللقرن العشرين « حكم وقت » يجعل صورة العدل فى القرن السابع ظلما يبرأ الله منه .. وتنتقل صورة العدل الى المستوى الجديد الذى ضمنه دين الله ، حين قصرت عنه شريعة الله للقرن السابع ، نزولا على مقتضى الحكمة التى اقام الله عليها « حكم الوقت » ..

وفى حين جاء فى شرع الله ان المرأة على النصف من الرجل ، جاء فى دينه ان المرأة مساوية للرجل ، امام القانون .. قال جل من قائل : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة .. والله عزيز حكيم » .. والمعروف هو ما تواضع عليه الناس ، بحسب حكم وقتهم ، بشرط الا يخل بغرض من اغراض الدين .. واغراض الدين محورها تحقيق كرامة الانسان ، من رجل أو امرأة .. والمعروف ، عندنا فى القرن العشرين ، هو ان نعلم المرأة لأعلى الدرجات ، وقد اصبح لدينا منهن الآن الطبيبة ، والقاضية ، والمحامية ، والمهندسة ، والزراعية ، والادارية الخ الخ .. وهذا العرف ، بما يحقق من كرامة الانسان ، فانه لا يعوق اغراض الدين ، وانما يحققها ، ولكنه ، فى نفس الوقت ، ولنفس السبب الذى ذكرنا ، يوجب تحولا جذريا فى امر الحقوق والواجبات التى قام عليها « حكم الوقت » فى القرن السابع .. فجاء من هنا قوله تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن » .. يعنى لهن من الحقوق مثل الذى عليهن من الواجبات .. فاذا كانت الواجبات التى عليهن ، وينهضن بها ،

مساوية للواجبات التى على الرجال ، وينهضون بها ، فقد اصبح لهن من الحق مثل ما لهم ، لا وكس ولا شطط ..

احب لبناتنا ان يعلمن هذا ، وان يجودن فهمه ، والا يترددن فى وصف قصور شريعة القرن السابع (وبخاصه فى امر الاسرة) عن شأو القرن العشرين وليكن واضحا فى اذهانهن انهن ، حين يفعلن ذلك ، لا ينسبن الظلم ، ولا القصور ، الى الله ، تعالى الله عن ذلك ، وانما ينسبنه « لرجال الدين » الذين يطيب لهم ان يتحدثوا باسم الله ، وهم لا يكادون يفهمون عنه شيئا ، وانما يتحدثون فيما لا يعلمون ، حين يريدون للناس ان يعتقدوا ان كلمة الاسلام الاخيرة فى امر التشريع قد قيلت فى القرن السابع ..

أحب لبناتنا ان يدافعن عن حقوقهن فى تشريع الدين ،لا ان يبحثن عن الانصاف فى شرائع الغربيين ، فانها لا تحوى لمشاكلهن حلولا ، ولا لمشاكل الرجال .. واحب لهن ان يستيقن انهن اولى بالدين ممن يسمون انفسهم « برجال الدين » ممن جمدوا الدين ، وجعلوه قضايا فقهية متحجرة ، لا روح فيها ولا حياة ..

هذا الكتاب ـ كتاب « تطوير شريعة الاحوال الشخصية » يهدى من جديد لبناتنا ، علهن يجدن فيه قبلة حلول مشاكل المرأة ، ومشاكل الرجل ، على سواء.

بسم الله الرحمن الرحيم

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم ازواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ..

صدق الله العظيم

مقدمة الكتاب:

هذا كتاب نخرجه للناس عن تطوير شريعة الأحوال الشخصية ، وهو كتاب جديد فى بابه ، ذلك بانه يتناول الشريعة السلفية بالتطوير ، فيرتفع بها من نص كان عمدتها فى القرن السابع ، حين نزل القرآن ، وشرع التشريع ، الى نص أعتبر يومئذ ، مرجأ الى وقته ، لأنه كان أكبر من ذلك الوقت ..

وكنا قد أخرجنا سفراً صغيراً عن الزواج اسمه : « خطوة نحو الزواج فى الاسلام » .. كان يستهدف أمرين اثنين : أولهما حل أزمة الزواج التى تهدد مجتمعنا الحاضر ، وذلك بالغاء مراسيم الزواج التى جرت العادة بترسمها ، وان كان فى ترسمها مخالفة للدين .. والأمر الثانى هو تحقيق الكرامة للمرأة العصرية ، فى الحدود التى تسمح بها الشريعة السلفية .. ولم تكن ضرورة من أجل تحقيق طرف صالح من هذين الغرضين ، ان نخرج عن الشريعة السلفية .. وان كانت ضرورة أن نخرج عما ألف الناس من هذه الشريعة .. ولما كنا فى نطاقها ، فى كل ما حواه : « خطوة نحو الزواج فى الاسلام » ، ما كنا نتوقع لهذا الكتيب أن يكون جدلياً .. وانما كنا ننتظر له أن يجد طريقه ممهداً ، وميسراً .. وكنا ننتظر الجدل لهذا الكتاب الذى نخرجه اليوم باسم : « تطوير شريعة الأحوال الشخصية » ذلك بأن فيه تطويراً للشريعة السلفية ، على هدى أصول الدين ، حتى تستوعب الشريعة

الجديدة طاقات الأنسان المعاصر ، وتحقق اغراض الدين بأكثر مما حققته الشريعة السلفية .. ولكننا عندما طرحنا كتيب : « خطوة نحو الزواج فى الاسلام » على القراء ، وأخذنا فى شرحه على الناس فى ندوات مفتوحات يحضرها الرجال والنساء ، من عامة المواطنين ، ظهر لنا ان كتاب : « خطوة ... » نفسه يثير جدلا .. وظهر لنا منه ان الناس يجهلون شريعة الأحوال الشخصية ، ولا يتابعون اعمال القضاء الشرعى فى المحاكم الشرعية فى هذه الشريعة .. بل ، أسوأ من ذلك ، فانهم لا يهتمون بها ، ولا يعرفون لها من الحق ، والحرمة ، والأهمية ، بعض ما ينبغى لها .. ذلك بأنها أكثر الشرائع ، على الأطلاق ، التصاقا بكل مواطن ، ومواطنة ، وتأثيراً على كل طفل ، وطفلة ، من افراد الأمة ، ذلك بأنك تستطيع أن تعيش حياتك ، طالت أو قصرت ، من غير أن تحتاج القوانين الجنائية ، أو القوانين التجارية ، أو القوانين التى تنظم التعامل فى الحقول الخارجة عن حقل عملك ، وعمل من يهمك أمرهم مباشرة ، ولكنك لا تستطيع أن تعيش حياتك ، طالت أو قصرت ، من غير أن تحتاج شريعة الأحوال الشخصية .. ذلك بأنها شريعة تدخل كل بيت وتؤثر ، تأثيرا مباشراً ومتصلا ، على كل رجل ، وعلى كل امرأة ، وعلى كل طفل ، وعلى كل طفلة ..

لماذا عدم الاهتمام :

ولقد لاحظنا أثناء مناقشتنا لكتيب : « خطوة نحو الزواج فى الاسلام » فى الندوات مع المواطنين ، فى الأحياء المختلفة ، من المدن المختلفة ، وفى بعض القرى ، أن المثقفين لا يجدون حرجاً من الأعتراف بجهلهم لهذه الشريعة .. فى حين أنهم لا يرضون أن تظهر ثغرات فى ثقافتهم العامة من الفلسفات المعاصرة ، ومن الأفكار الاجتماعية التى تسود عالم اليوم .. ولعل بعض السبب فى عدم الأهتمام هذا يعود الى صنيع الاستعمار البريطانى ، الذى

صنعه بهذه الشريعة ، وبرجال هذه الشريعة . .

عندما دخل الاستعمار البريطانى هذه البلاد ، فى أخريات القرن التاسع عشر ، وغرة القرن العشرين ، وجد نفسه أمام شعب متعلق بالـدين ، سيىء الظن بنوايا العهد الاستعمارى الجديد ، كثير الخشية منه على الدين ، فما كان من هذا العهد الجديد الا أن أخذ فى تطمين الشعب على عدم التدخل فى دينه ، فأعلن عزمه على تسليم أمور دين الشعب الى زعمائه الـدينيين والى فقهائه ، والى قضاته الشرعيين . . فأنشأ المحاكم الشرعية . . وحدد لها اختصاصا لا يتعدى شريعة الأحوال الشخصية . . وجعل تنظيم أحـوال الناس المعاشية ، فى تعاملهم اليومى ، الى الشريعة الوضعية ، وأقام القضاء المدنى بازاء القضاء الشرعى ، وجعله فوقه ، وأعطـاه السيادة عليه ، وجعل تنفيذ أحكـام القضاء الشرعى فى يد القضاة المدنيين . . وكانوا ، فى الغالب الأعم ، بريطانيين . . فأوحى هذا الصنيع للشباب الذين أخذوا يتلقون العلم فى المعاهد التى أنشئت حديثاً بالبلاد ، على مناهج التعليم الغربى ، أوحى اليهـم بثانوية الشريعـة الاسلامية عامة ، وبشريعة الاحـوال الشخصية بخاصـة ، اذا ما قورنت الى القانون المدنى . . وكذلك نشأ عـدم الاهتمام بها والانصراف عن الاطـلاع عليهـا . .

مـاذا نـريـد ؟؟

ولمـا اتضح لنا هذا الجهل بشريعة الأحوال الشخصية ، واتضح لنا مدى عدم الاهتمام بها ، آثرنا ان نرجىء اصدار كتاب : « تطوير شريعة الأحـوال الشخصية » هذا الذى بين يدى القراء الآن ، ابتغاء أن يجد كتيب : « خطوة نحو الزواج فى الأسلام » الوقت الكافى ليثير الاهتمام بهذه الشريعة ، شديدة الأهمية لجميع المواطنين ، بين جميع المواطنين . . وقد طبع من هذا الكتيب ، فيما دون العام خمس وثلاثون الف نسـخة . . وناقش فى العاصمة والمـدن

الاقليمية . . فى ندوات مفتوحة . . فى الاندية ، والبيوت ، ووسائل الأعلام المختلفة ، من صحف ، واذاعة ، وتلفزيون . . ولا يزال الطبع جارياً فى نسخه لزيادة نشره . . وسيظل نقاشه جارياً فى جميع الأوساط التى يتيسر لنا التحرك فيها . . والذى نريده ، من كل اولئك ، هو اثارة الأهتمام بهذه الشريعة ، ونشر الثقافة العامة فى تفاصيلها بين الشعب . . ثم تطبيق كتيب : « خطوة نحو الزواج فى الاسلام » فى جميع مستويات الأمة ، كخطوة انتقالية ضرورية ، تستعد بها الأمة لدخول عهد كرامة الرجل ، وكرامة المرأة ، تلك الكرامة التى يدخرها الاسلام للرجال : والنساء ، والأطفال ، فى جميع مناشط حياتهم ، وسيظهر هذا جلياً فى كتابنا هذا الذى بين يدى القراء — « تطوير شريعة الأحوال الشخصية » . .

اعتـــذار .

ونحن نرى أن أسم هذا الكتاب : « تطوير شريعة الأحوال الشخصية » بوجب علينا كلمة اعتذار . . فأن عبارة « شريعة الأحوال الشخصية » انما نشأت فى عهد الظلام . . عهد تعطيل عمل الشريعة الأسلامية ، فأخذت تقوم بجانب واحد ، وتعطل بجوانب أخرى . . وما أحب أن القى اللوم على الاستعمار . . لأن الاستعمار نفسه انما هو نتيجة لتخلف المسلمين ، ونصولهم عن دينهم — الاستعمار ليس هو المرض ، وانما هو من أعراض المرض . . والذين يظنون غير ذلك ، فيلقون عليه مسئولية تخلف الاسلام ، والمسلمين ، يخطئون كثيراً ، نتيجة لسطحيتهم فى التفكير . . وهم معرضون من ثم لشىء من خيبة الأمل ، غير قليل ، عندما ينظرون ، وقد جلا الاستعمار من أرض العرب ، وأرض المسلمين ، ثم لا يزال العرب ، والمسلمون ،

متخلفين ، بعيدين عن دينهم .. ان السبب الحقيقى لهذا التخلف هو الجهل بالدين ، والانحراف به الى قضايا فقهية متحجرة ، تكبل العقل ، الذى يتخذها منهاجاً لدراسته ، ولا تحرره ..

كيف السبيل الى التحرير ؟؟

السبيل واحد .. لا سبيل غيره .. بعث « لا اله الا الله » قوية ، خلاقة فى صدور الرجال ، والنساء ، كعهدنا بها يوم خرجت من منجمها ، فى القرن السابع ، فى الوسط العربى فى مكة ، وما جاورها .. ونحن ، من أجل ذلك ، نبشر بهذا البعث .. وندعو اليه ، فى معنى ما نبشر بتطوير الشريعة الأسلامية ، بارتفاعها من النصوص الفرعية الى النصوص الاصلية .. فأما النصوص الفرعية فهى الآيات المدنية التى اعتبرت صاحبة الوقت فى القرن السابع .. واعتبرت من ، ثم ، ناسخة للآيات المكية .. وأما النصوص الأصلية فهى هذه الآيات المكية التى اعتبرت يومئذ اكبر من قامة المجتمع .. فلم يقم عليها التشريع .. واعتبرت فى حقه منسوخة .. وارجئت الى ان يجىء وقتها .. وعندنا أن وقتها الآن قد جاء بمجىء هذا المجتمع البشرى المعقد ، ، الذكى ، ذى الطاقات العلمية ، والفنية ، والثقافية والاجتماعية التى لا يمكن ان تقارن بطاقات مجتمع القرن السابع ، بحال من الأحوال .. ولقد أفردنا لهذا الموضوع كتاباً باسم « الرسالة الثانية من الاسلام » يجرى الآن فى طبعته الرابعة ، ويجد اقبالا متزايداً ، وتفهما مطرداً ، من جانب المواطنين .. وسيقوم كتاب « تطوير شريعة الأحوال الشخصية » بسبيل من هذا الفهم الذى خرج لتقعيده كتاب « الرسالة الثانية من الأسلام » .. حتى اذا اتضحت معالم الشريعة الاسلامية المتطورة ، الجديدة ، لم تعد هناك حاجة الى الأسم « شريعة الاحوال الشخصية » .. لأن الشريعة الاسلامية الجديدة ستوجه طاقات المجتمع الجديد ، فى سائر وجوه مضطربه ــ فى المنزل ، وفى

المدرسة ، وفى المكتب ، وفى المصنع ، وفى السوق ، وفى الشارع — فى منشطه ، وفى مكرهه ، فهى كل ، متكامل ، وما « شريعة الأحوال الشخصية » الا جزء من كل ؛ وان كان جزءا له خطره وقدره ..

ثم ان توضيح مقدرة الشريعة الاسلامية على التطـــور من مستواها السلفى فى القرن السابع الى مستوى مجتمع القرن العشرين ، حتى تستوعب حاجاته ، وتوجه طاقاته ، هو ، فى ذاته ، يكون الدعوة الى الأسلام والى بعث « لا اله الا الله » من جديد ، لنأخذ ، من مستواها الجديد الذى تبعث فيه ، تشريعنا الجديد ، الذى يوفق فى سياق واحد ، بين حاجة الفرد الى الحـرية الفردية المطلقة ، وحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة .. هـذا التشريع هو التشريع الدستورى الذى لم تظفر البشرية به الى اليوم ، وهو ، هو ، حاجتها .. لأن به دخولها عهد عدلها ، ورخائها ، وكرامتها ، وسلامتها .. ومـن ههنا تجىء قيمة الأسـلام التى لاتجاريه فيها فلسفة اجتماعية مـن الفلسفات التى يفتن بها المثقفون عندنا الآن .. ومن ههنا أيضـا يجىء نظر الأسلام ، فى حقيقته ، لا فى شريعته السلفية ، الى المرأة كأنسان ، لا كجنس .. قال تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف .. وللرجال عليهن درجة » .. هذا يعنى أن لهن من الحقوق بقدر ما عليهن من الواجبات ، سواء بسواء .. قـوله « بالمعروف » .. يعنى « بالمعروف » ما تواضـع عليـه المجتمع ، فى تطوره المستمر نحـو كمالاته المبتغاة ، بشرط واحد ، هـو الا يكون المعروف المتواضع عليه مخلا بغرض من أغـراض الدين .. وأغـراض الدين جماعها تكريم الأنسان ، من رجل وامرأة .. فاذا بلغ تطور المجتمع بالمرأة أن تتولى المناصب الرفيعة بجدارة فان حقها من الحرية يكون مكافئا لمقدرتها علـى أداء هذا الواجب الرفيع .. فاذا كانت تؤديه كما يؤديه الرجل فقد أصبح حقها فى الحرية مكافئا لحقه فيها .. ذلك لسبب واحد بسيط هو أن واجبها قد كان مكافئا لواجبه .. تكافآ فى الواجبات ، فأصبح ، من مبادىء العدالة ، أن يتكافآ فى

الحقوق ــ « الأجر المتساوى للعمل المتساوى » ــ كما يقال ، فى وقتنا الحاضر .. وان كان ما يقال يقتصر على المكافأة المادية فقط .. « وللرجال عليهن درجة » لا تعنى ، بالطبع ، ان لمطلق رجل درجة على مطلق امرأة .. هذا يؤكده الواقع المعاش ، والسير الموروثة .. وبهذا الفهم ينفتح طريق مساواة الرجال والنساء ، فى الحقوق ، والواجبات ، فى تشريعنا الأسلامى الجديد .. ولا تقع درجات التفاوت ولا التفاضل الا فى منطقة الأخلاق .. لا فى منطقة القانون ..

توطئـــة البحـــث :ــ

هذا بحث فى أصل أصول الدين • • بحث فى كرامة الأنسان • • والأنسان هو قمة هرم المملكة • • فان المملكة مكونة هكذا :ــ

فى القاعدة الغازات ثم السوائل ، والجمادات • • (بما فيها ، وفى قمتها الطين والماء) ، ثم النباتات ، ثم الحيـــوانات ، ثـــم البشر (بنو آدم) ، ثـــم الأنسان • • قال تعالى فى كرامة بنى آدم : « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر ، والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم علـــى كثـــير ممن خلقنا تفضيلا » • • وبنو آدم ليسوا قمة الخليقة ، وانما هم مرحلة من مراحل تطور الخليقة فى المملكة نحو مرتبة الأنسان • • بنو آدم بالنسبة للأنسان كالحيوان بالنسبة لبنى آدم • • وفى حين أن بنى آدم مفضلون على كثير من المخلوقات « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » • • فان الأنسان مفضل على سائر المخلوقات • • وانما من أجل الأنسان خلقت الأكوان ، وما خلق الانسان الا من أجل الله • • قال تعالى فى معنى خلق الاكوان من أجل الانسان « هـــو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع ، والزيتون ، والنخيل ، والأعناب ، ومن كل الثمرات • • ان فى ذلـــك لآية لقوم يتفكرون * وســـخر لكم الليل ، والنهـــار ، والشمس ، والقمـــر ، والنجوم مسخرات بأمره ، ان فى ذلك لآيات لقـــوم يعقلون * وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا الوانه ، ان ذلك لآية لقوم يذكرون * وهو الذى ســـخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشـــكرون * والقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وأنهاراً ، وسبلا • • لعلكم تهتدون * وعلامات ، وبالنجم هـــم يهتدون » • •

وفى معنى خلق الأنسان من أجله قال تعـــالى : « وذكر !! فان الذكرى تنفع المؤمنين * وما خلقت الجن ، والأنس ، الا ليعبدون * ما أريد منهم من

رزق ، وماأريد أن يطعمونى * أن الله هو الرزاق ، ذو القـوة المتين » • •
وقال تعالى فى حق موسى « واصطنعتك لنفسى » • • وانما من هذه الآيات ومن تلك ، قال العارفون عن لسان الحق : « جعلت الأكوان مطية للأنسان ، وجعلت الأنسان مطية لى » وهو قول يذرع أيضا على الحديث القدسى : « ما وسعنى أرضى ، ولا سمائى ، وانما وسعنى قلب عبدى المؤمن » • • وعلى الآية الكريمة : «سنريهم آياتنا ، فى الآفاق ، و فى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق •• أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟؟» •• ولم يكن الأنسان غائبا عن الأكوان ، وانما كان دائما طليعتها ، ورأس سهم تقدمها ، من لدن الغازات •• ولا يزال التقدم يطرد به ، ولما يبرز لمقام عزه بعد •• قال تعالى عن تقلب الأنسان فى الصور البدائية ، فى الآماد السحيقة : « هل أتى على الأنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ؟؟ * انا خلقنا الأنسان من نطفة أمشاج ، نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً * انا هديناه السبيل : اما شاكراً ، واما كفوراً » وقوله « هل » هنا تعنى (قد) •• قد أتى على الأنسان دهر دهير لم يكن فيه مذكوراً فى ملكوت الله ، لأنه لم يكن ، خلال هذا الدهر الدهير ، يتمتع بعقل التكليف • • وانما من ههنا سقط ذكره — « لم يكن شيئاً مذكوراً » •• وهذا الدهر الدهير يوقت تقلبه فى الصور الدنيا ، من أسفل سافلين حيث رد ، صاعداً الى أحسن تقويم حيث خلق •• قال تعالى : « لقد خلقنا الأنسان فى أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين » و « أسفل سافلين » هذه هى نقطة أدنى صور تجسيد المادة •• وتسخير الأكوان له انما معناه اعانته فى سيره هذا الطويل من منفاه فى البعد الى مقامه فى القرب عند الله •• كل شىء سخر لهذه الغاية •• ابليس ، وذريته ، والملائكة الأطهار ، والرسل ، والكتب ، والشرائع ، والقرآن بصورة خاصة •• ذلك بأن طريق الرجعى به قد بين أحسن تبيين •• وهو بصورته التى بين دفتى المصحف قد نزل مؤخرا على خاتم النبيين ، ولكنه ، فى حقيقته ، ما بدأ نزوله ، ولا انقطع نزوله ، وانما هو

مستمر النزول ، ولن ينفك .. هو فى صورته التى بين دفتى المصحف قد نزل ليوجه تطـور البشرية نحو الانسانية ـ ليستخلص الأنسان مـن البشر .. وليرسم طريق رجعته الى وطنه الذى قد طال اغترابه عنه .. انظر كيف تحكى هذه الآيات الكريمات بداية هذا الطريق ، ونهايته : « حم * والكتاب المبين * انا جعلناه قرآناً عربياً ، لعلكم تعقلون * وانـه ، فى أم الكتاب لدينا ، لعلى حكيم » .. عبارة « لدينا » تعنى عند الذات ، حيث لا عند .. وهـذه تمثل خط السير فى المطلق .. والآية : « انا جعلناه قرآناً عربياً ، لعلكم تعقلون » ، تحكى طرف هـذا الطريق الـذى لامس أرض الناس ، حيث قامت الشريعة لتنظيم حياة الأفـراد ، مـن رجال ، ونساء ، تنظيماً يـوفق توفيقاً دقيقا ، ومتساوقاً بين حاجة الفرد من رجل ، وامرأة ، الى الحرية الفـردية المطلقة ، وحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة ..

هـذا هـو المحـك :ـ

والمقدرة على التوفيق بين حاجة الفرد الى الحـرية الفردية المطلقة ، وحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة ، هى القمة التى تظهر قصور الفلسفات الاجتماعيات المعاصرات .. مع أن هذه الفلسفات هى قمة ما وصل اليه الفكر البشرى الى اليوم .. ويمثلها من هـذه الفلسفات الاجتماعيات المعاصرات الماركسية ، والديمقراطية الغربية .. وما ذاك الا لمكان نفوذهما ، واستيلائهما على تنظيم المجتمع البشرى المعاصر ، فى الشرق ، وفى الغرب .. لقد تفرد الاسلام عن هاتين الفلسفتين بهذه المقدرة الدقيقة الفريدة ـ المقدرة على التوفيق بين حاجة الفرد وحاجة الجماعة ـ ويرجـع الفضل الأساسى فى تفرد الاسلام بهذه المقدرة الى أن شريعته تقع فى مستويين : مستوى الفرد ، ومستوى الجماعة .. فاما شريعته فى مستوى الفرد فتعرف بشريعة العبادات ، وتعنى ، فى المكان الأول ، بانشاء ، وتنظيم العلاقة بين الفرد والرب .. وتتجه

الى ايقاظ الضمير ، وتركز فيه الايمان بأن الله ، يلاحظه ، ويراقبه ، ويعلم ما ينطوى عليه من خفايا الأسرار .. « وأنذرهم يوم الآزفة ، اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين .. ما للظالمين من حميم ، ولا شفيع يطاع * يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور * والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء .. ان الله هو السميع البصير » ..

وأما شريعته فى مستوى الجماعة فتسمى شريعة المعاملات ، وتعنى بانشاء ، وتنظيم ، العلاقة بين الفرد والفرد .. والشريعتان متكاملتان ، ومتداخلتان ، ومؤثرتان ، ومتأثرتان ببعضهما ، على نحو ما تؤثر الجماعة فى الفرد ، وتتأثر به .. والتعليم المركوز ، والثابت ، فى أصول الدين ، أن الله غنى عن عبادة العباد .. فلم يبق الا أن العباد هم المحتاجون الى العبادة .. ومعنى هذا أن العبادة التى تتجه الى ايقاظ الضمير ، وبعثه ، وتقويمه ، انما مرادها اكساب الفرد المقدرة على حسن التصرف فى سلوكه فى الجماعة ، فأنه ، حين يستعين بالعبادة على المقدرة على حسن التصرف فى السلوك فى الجماعة ، ينجو من طائلة قوانين المعاملة ، ويستمتع ، بفضل هذه المقدرة ، بالحرية من الخوف من وصول عقوبة القوانين اليه ، وبذلك يحرز كرامته كانسان ، ليس عليه من رقيب الا ضميره المنفتح على الله ، والمراقب له ، فيما يأتى وما يدع ..

نشأة الضمير :

ولم تكن نشأة الضمير البشرى أمرا هينا ، ولا ميسورا .. ولقد استغرق حقبة طويلة من الزمن ، بدايتها تؤرخ ارتفاع الانسان المعاصر عن مرتبة الحيوان .. ولقد تولى الاسلام بدء هذه النشأة ، وظل يرعاها ، وينميها ، ويوجه مصيرها الى يوم الناس هذا .. ولكن الناس لا يعلمون هذا لانهم انما يظنون أن الاسلام جاء به محمد ، النبى الأمى ، فى القرن السابع ، حين نزل

القرآن باللغة العربية ، فى شعاب مكة .. فان وجدت منهم عالما فقد يخبرك أن الأسلام قد جاء به الانبياء ، من لدن آدم .. والحق أبعد من ذلك .. فان الاسلام ، فى عموم معناه ، هو الارادة الالهية التى سيرت الملكة ، فى جميع مستوياتها ، تسييرا قاهرا ، ومهتديا .. يقول تعالى فى ذلك « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات ، والأرض ، طوعا ، وكرها ، واليه يرجعون ؟؟ » هذا هو دين الاسلام العام .. وعنه لا يخرج خارج ، ولا يشذ شاذ .. وفيه لا تقع المعصية .. فمن عصى فيه فقد أطاع ، فى معنى ما قد عصى .. وهذا الاسلام قد سير المادة الصماء تسييرا قاهرا ، فأسلمت وجهها « كرها » الى أن استخرج من المادة الصماء المادة الحية — من المادة غير العضوية استخرج المادة العضوية ، كما يعبر علماء الاحياء عندنا الآن .. ثم ان هذا الاسلام العام قد واصل توجيهه للمادة غير العضوية ، وللمادة العضوية ، على اختلاف فى مستويات هذا التوجيه ، فدخل اعتبار اللذة ، ودخل اعتبار الألم ، فى منطقة المادة العضوية — الحياة — فأصبحت الحياة تطيع توجيه اللذة « طوعا » وتطيع توجيه الألم « كرها » .. وهذا وذاك معنى قوله تعالى ، فى هذه المرحلة من مراحل الملكة : « وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها » .. ثم ان هذا الدين الاسلامى العام قد واصل توجيهه بعد بروز الحياة الى أن برز العقل .. وببروز العقل برز الدين الاسلامى الخاص .. ويؤرخ بروزه بروز شريعة الحلال والحرام .. وهذه شريعة سابقة لعقيدة التوحيد ، وهى شريعة لم يفترعها آدم أبو البشرية المعاصرة ، وأول الرسل المذكورين عندنا فى القرآن ، وانما جاءت بها رسل قبله ، ممن لم يرد ذكرهم بصريح العبارة ، وان وردوا فى مضمون الاشارة .. قال تعالى فى ذلك : « واذ قال ربك للملائكة : انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ؟؟ قال : انى أعلم مالا تعلمون » . والاشارة هنا مضمنة فى اعتراض الملائكة حين قالوا :

« أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ؟؟ » فانما كان اعتراضهم هـــذا ثمرة ممارستهم لتجارب بشرية فاشلة انقرضت بسبب فشلها •• وكـانت هي مقدمة للتجربة البشرية الناجحة ، الحاضرة ، والتي جاء طليعتها بدين الاسلام الخاص ، في مرحلة التوحيد •• والى هــذا اشارة المعصوم بقوله : « خير ما جئت به ، أنا والنبيون من قبلي ، لا اله الا الله » •• واليه أيضـــا الاشارة بقوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا أليك ، وما وصينا به ابراهيم ، وموسى ، وعيسى : أن أقيموا الـــدين ، ولا تتفرقوا فيه : كبر على المشركين ما تدعوهم اليه •• الله يجتبي اليه من يشاء ، ويهدي اليه من ينيب » •• فان « شرع لكم من الدين » ههنا تعني التوحيد ، ولا تعني التشريع ــ تعني « لا اله الا الله » •• وانما من هذه الآية جاء قول المعصوم الذي سلفت اليه الاشارة ، قبل قليل ••

نشـــأة الاســـلام الخـــاص :

في حين أن الارادة الالهية القاهرة هي دين الاسلام العام ، فان الرضا الالهي اللطيف هو دين الأسلام الخاص •• فانه لمن دقائق العلم بالله أنه أراد شيئا ولم يرضه •• فهو قد أراد الشر ، ولكنه لا يرضى الا الخير •• قال تعالى في ذلـــك : « ان تكفروا فان الله غني عنكم ، ولا يرضى لعبـــاده الكفـــر ، وان تشكروا يرضه لكم » •• فهو يقول : « ان تكفروا فان الله غني عنكم » ، ومعنى هذا أنكم لم تكفروا مغالبة له ، وانما كفرتم بارادته •• وهذا يؤخذ من معنى الاسم « الغني » •• فان « الغني » هو الذي لا يغلب •• فهو في هــذه يريد الشر ، ولكنـــه لا يرضى الا الخـــير •• والله يريد بذاته ، ويرضى بذاته ، في تنزل ، ولكن الرضا في تنزله أقرب الى الذات من الارادة في تنزلها •• والذات وحدة مطلقة •• وهي ، في ذلك ، خير مطلق •• فمنزلة الرضا منزلة خير ، الشر فيها غايب •• ومنزلة الارادة منزلة خير الشر فيها أكثر منه في منزلة الرضا ••